
مدرسة رواق الحنبليات
قسم الدورات العامة
رواق الحنبليات
رجب
1440
شرح كتيب
الافتقار إلى الله لب العبودية
للشيخ
أحمد الصويان
شرح:
سارة بنت محمد حسن

بسم الله الرحمن الرحيم

المحاضرة السادسة : شرح كتيب الافتقار إلى الله لب العبودية

إن الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستهديه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله تعالى فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

أما بعد،

نُكمل علامات الافتقار إلى الله عز وجل:

العلامة الخامسة: خشية الله في السر والعلن

"وشرط الخشية الصادقة أن تكون بالغيب؛ لأن القلب لا يتعلق إلا بالله ولا يلتفت إلى ما سواه".

وقد استدل الشيخ هنا ببعض آيات القرأن الكريم؛ **"إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ"، "وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (34) الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ".** والخشية مزيج من الخوف مع المحبة والخجل والوجل والحياء.

التعليق:

هناك نقطة قد يختلط على بعض الناس فهمها مثل التباس المحبة الشركية؛ أيضا الخوف الشركي. فقد يظن الناس أن أي خوف مصروف لغير الله عز وجل خوفٌ شركي. والحقيقة أن هناك خوفٌ فطري مثل الخوف من الحيوانات المفترسة أو حتى الفوبيا من بعض الحشرات الضعيفة كالصرصور وغيرها. وقد يصل الأمر أن هذا الخوف يُخرج الإنسان من الصلاة مخافة هذا المخلوق، ومن التهويل وصفه بأنه لا يخاف من الله عز وجل أو أنه يخاف من أشياء مخافة شركية تُخرجه من الدين.

نقطة أخرى تختلط على الناس وهي اعتبار الإنسان الذي يقع في المعاصي بعيدًا عن أعين الناس بالرغم من أن ظاهره الصلاح والتقوى -هو إنسان منافق مراءٍ يخشى الناس ولا يخشى الله. ولفهم الفروق البسيطة في هذه الحالة دعنا نذكر ثلاثة نماذج:

1- سيدة تسعى في الخيرات وخدمة المحتاجين وتشترك في مجموعات لحفظ القرآن مع صاحباتها وتلتزم مع صحبة صالحة لحضور دروس الدين وغيرها.
2- رجل ظاهره خارج المنزل الصلاح والتقوى ولكنه إذا اختلى بمحارم الله انتهكها بتبجح ودون أدنى قدر من الشعور بتأنيب الضمير ويعامل زوجته وأهل بيته بطريقة سيئة ولا يحسن لهم في القول أو الفعل.

3- شاب عليه علامات المحافظة والصلاح ولكنه ضعُف في إحدى المرات أمام أمر ما من المحرمات.

هل من الممكن أن نسوي بين كل هذه النماذج دون تمييز؟ القاعدة أن معظم الأعمال الصالحة في طبيعتها تحدث أمام الناس علنًا بغض النظر عن القلب سواء به رياء أو إخلاص: فالصلاة تحدث أمام الناس، حضور دروس الدين تحدث أمام الناس، الاشتراك في الجمعيات التكافلية التي تخدم المحتاجين يحدث أمام الناس. في حين أن المعاصي في الطبيعي لا تُرتكب في العلانية ونادرًا ما تجد شخص يفعل المعصية بتبجح أمام الناس، ولا يمكننا أن نقول بأن الشخص المجاهر بالمعصية هو أفضل من الشخص الذي يفعلها سرًا؛ لأن الأول غير مراءٍ والثاني مراءٍ ومنافق وظاهره ليس كباطنه. وإلا فما الحل هنا؟

هل الحل بأن من كان حقيقته الإخلاص فعلًا وقد ابتلاه الله عز وجل بالوقوع في معصية ما أن يجاهر بها حتى لا يكون مراءٍ ويصبح ظاهره كباطنه؟ وإلا فما معنى حديث رسول الله: **"كلُّ أُمَّتي مُعافًى إلا المجاهرين، وإنَّ من الجِهارِ أن يعملَ الرجلُ بالليلِ عملًا ثم يُصبِحُ و قد ستره اللهُ تعالى فيقولُ: عملتُ البارحةَ كذا و كذا، و قد بات يسترُه ربُّه، و يُصبِحُ يكشفُ سِترَ اللهِ عنه"**.

وفي نفس الوقت من الخطأ أن نماثل بين صورة الشخص الذي يتظاهر بالتدين وبمجرد أن يختلي مع أُناس يأمن على نفسه من ألسنتهم -وأنهم لن يعيبوا عليه فعله- ينتهك حرمات الله، وبين الشخص الذي في حقيقته الإخلاص والتقوى ولكنه ذل فأخطأ مرة بعيدًا عن أعين الناس.

خلاصة هذا الأمر: هناك فارق كبير بين الإنسان الذي يضعف ثم يعود وإن ذُكر تذكر وإن أذنب استغفر، وبين المتبجح الذي لا يتذكر ولا يتوب ولا يعود ولكنه استمرأ المعصية وأَلِف الذنب وتجرأ عليه ولم يهتم برضا الله أو سخطه حتى أصبح كل ما يهمه نظرة الناس إليه. والإنسان عمومًا يجتمع فيه الخير والشر والحال الذي سيتغلب عليك سيكون هو حالك. فاعمل على أقصى جهدك في الابتعاد عن أكبر قدر من المعاصي وأصلح كل المواضع التي يعينك الله على إصلاحها حتى تجعل من الذنب عثرة عابرة لا عادة مألوفة تعد لها وتدبر لها.

نقطة أخرى وهي: قد تحدثك نفسك بأن تُفصح عن الذنب لا من باب المجاهرة ولكن من باب أن تخرج من النفاق وأن تجد من يعاتبك على الذنب ويجلدك على فعله، وهذا التفكير خاطئ؛ لأن الله سبحانه وتعالى واحد أحد وهو الذي سيحاسبنا فيغفر إن شاء أو يُعذب، ولم يجعل لأحد علينا سلطانًا في هذا، كما أن التصريح بالذنب قد يُجرئ الطرف الآخر على فعل نفس الذنب لأنه سمع أن غيره فعله فيستهين به، وقد تُصيبه حالة من الكبر لأنه معافى ولا يفعل ما يفعله غيره، وقد يضعف فيفشي سرك فتكون قد آذيته وعرضته لمعصية أخرى ارتكبها.

إذن ففي جميع الحالات وبأي نية كانت فإن المصارحة بالذنب من الأمور المكروهة؛ بل إنها تصل إلى درجة غضب الله عز وجل والحرمان من معافاته إن وصلت إلى درجة المجاهرة والتبجح بها. وقد يستعين الإنسان بطبيب نفسي أو إخصائي نفسي للتغلب على نقطة ضعف ما عنده وهذا لا شيء فيه ولا تعتبر مجاهرة، ولكن نضع أمام أعيننا استحباب الستر فنلتمس متخصصًا لا يعرفنا أو وسيلة أخرى من وسائل تحقيق الستر. ونحاول جاهدين أن نجعل ظاهرنا من الصلاح كباطننا، فنفعل الصالحات في السر كما

نفعلها بالعلن؛ فنقيم الليل ولو بركعتين ونقرأ في كتاب الله ونتصدق سرًا حتى نتغلب على ضعفنا ونجعل من الذنب عثرة لا عادة نترصد لها ونغتنمها.

فكن كالمحارب الشجاع ذي الشرف الذي يرفض الأسر أو الموت بسهولة ولكنه يحارب حتى آخر رمق ولا يستسلم، وهكذا شهواتنا لابد أن نحاربها بشجاعة ولا نستلسم ولا نُعين الشيطان على أنفسنا.

العلامة السادسة: تعظيم الأمر والنهي

ونقل هنا الشيخ قول الإمام ابن القيم: **"استقامة القلب بشيئين: أحدهما؛** أن تكون محبة الله تتقدم عنده على جميع المحاب.

التعليق:

وهذه النقطة يتفاضل فيها الناس فيما بينهم وتتمايز درجاتهم بها، فمثلًا: رد فعل الناس عندما يسمعون الأذان وهم يتحدثون في الهاتف يختلف من شخص إلى آخر على حسب تعظيمه وأولوياته، فأنت لازلت في نطاق المباح لو أنك أكملت المكالمة ثم قمت إلى الصلاة طالما أنك ما زلت في التوقيت المباح لتلك الفرض وقد تُنهي المكالمة حتى تُعجل من تلبية النداء والامتثال لأمر الله عز وجل في وقته. وهنا يأتي التباين بين الناس في تقديمهم لمحاب الله عز وجل على المصالح الدنيوية.

الأمر الثاني: تعظيم الأمر والنهي، وهو ناشئ عن تعظيم الآمر الناهي.

التعليق:

المقصود بتعظيم الأمر والنهي: هو إجلال ما أمرنا الله بفعله كالصلاة والزكاة والصوم ومهابة ما نهانا عنه كالزنا وشرب الحمر وترك الصلاة ... إلخ. ولأننا بتعظيمهم نكون قد عظمنا الله عز وجل. وهنا تظهر ضرورة وأهمية معرفة الفروق البسيطة بين ما هو فرض وما هو مستحب، بين ما هو مقطوع بتحريمه إجماعًا وبين المكروه، بين الحلال والحرام والمتشابهات، حتى لا نشق على أنفسنا ونحملها ما لا طاقة لها به فنجعل من المستحب فرضًا ونُضيق على أنفسنا بذلك. فكل الأوامر وكل النواهي ليست على نفس الدرجة، لدرجة أن بعض فقهاء الصحابة كانوا يتركون الأضحية حتى لا يظن الناس أن الأضحية ارتقت إلى درجة الفرض.

وكان هذا هدي النبي نفسه صلى الله عليه وسلم ففي الحديث الشريف: **"عن عائشة رضي اللَّه عنها قَالَتْ: "إِنْ كَان رسولُ اللَّه ﷺ لَيدعُ الْعَمَلَ وهُوَ يحِبُّ أَنَ يَعْمَلَ بِهِ؛ خَشْيَةَ أَنْ يَعْمَلَ بِهِ النَّاسُ فيُفْرَضَ عَلَيْهِمْ"،** وتركه عليه الصلاة والسلام صلاة التراويح جماعة بعد أن صلاها بأصحابه ثلاث ليال، مخافة أن تُفرض عليهم؛ رحمة منه وشفقة بأمته، فقد روي عن عائشة رضي الله عنها **أن رسول الله ﷺ خرج ليلة من جوف الليل فصلى في المسجد، وصلى رجال بصلاته، فأصبح الناس فتحدثوا فاجتمع أكثر منهم ، فصلوا معه، فأصبح الناس فتحدثوا، فكثر أهل المسجد من الليلة الثالثة، فخرج رسول الله ﷺ فصلى فصلوا بصلاته، فلما كانت الليلة الرابعة عجز المسجد عن أهله، حتى خرج لصلاة الصبح، فلما قضي الفجر أقبل فتشهد ثم قال: أما بعد، فإنه لم يَخْفَ علي مكانكم، ولكني خشيت أن تُفترض عليكم فتعجزوا عنها، فتوفي رسول الله ﷺ والأمر على ذلك.**

وقد يظن البعض أن المحب الحقيقي هو الذي يتعامل بمنطلق أن الفرض والمستحب على نفس الدرجة، وهذا الظن قد يكون ضره أعظم من نفعه، حتى إننا في فترة الإقبال على الله سبحانه وتعالى نأتي بالطاعات جميعًا الفرض منها والمستحب والسنة والمباح، وإذا فتُرت عزيمتنا تركنا الفرض مع المباح مع المستحب وأسقطنا كل شيء لأنه سبق لفهمنا وتصورنا أنهم على نفس الدرجة وهنا نخرج من المباح إلى المحرم قولًا واحدًا. والأصلح أن نعلم حقيقة الأمور ودرجاتها ونجتهد ونأتي بما نستطيع أن نأتي بها في فترات إقبالنا على الله عز وجل، فإن فتُرت عزيمتنا حافظنا على الفروض دون مشقة حتى تعود لنا عزيمتنا وإقبالنا من جديد.

والناس مختلفون، فما يُصلحنا قد يُفسد غيرنا، فبعض الناس ربما تجد صلاحها في ترك بعض المكروهات بل من الممكن أن نقول بعض المباحات، والبعض الآخر قد يكون ترك تلك المباحات مشقة عليه ومفسدة له، فالتعامل بمبدأ أن ترك كل شيء محرمًا أو مكروهًا والإقبال على كل شيء فرضًا كان أو مستحبًا من باب أن أكون أورع من العلماء والفقهاء أنفسهم -يضر الناس أكثر من نفعهم. فلابد أن يكون الإنسان لديه فقه عن دراسة مهتديًا بالسلف الصالح دون التعامل مع النصوص بمبدأ الأحوط والأورع والأتقى، فنظلم أنفسنا ونظلم الناس.

.ثم يكمل الشيخ علامات تعظيم المناهي:

1- **الحرص على التباعد من مظانها وأسبابها وما يدعو إليها ومجانبة كل وسيلة تقرب إليها.**
2- **أن يغضب لله عز وجل إذا انتُهكت محارمه، وأن يجد في قلبه حزنًا وكسرة إذا عُصي الله تعالى في أرضه، ولم يُطع بإقامة حدوده وآوامره ولم يستطع هو أن يُغير ذلك.**

تعليقًا على النقطة الثانية: وهي أن يغضب الإنسان إذا رأى أي مُنكر يغضب الله عز وجل في أرضه، فلا يقودني شعور كره المعاصي لكره أصحابها. مثل أن يُظلم أحد ولم يستطع أن يدفع الظلم على نفسه فيدعو على من ظلمه بأن يرزقه بما هو أشد تجبرًا منه فيظلمه، وكأنني أدعو الله بأن يحدث في أرضه مفاسد ومكروهات ومنكر لا يرضاه الله سبحانه وتعالى لخلقه، فأصبح لا أبالي بأن يُعصى الله في أرضه ولا أن تُقام حدوده.

وهذه ليست دعوة لإنكار النفس والتنازل عن حقك واستباحة نفسك، ولكن كل ما عليك أن تدعو الله بعودة حقك دون أن تفرض الكيفية على الله عز وجل وبدون التعدي في الدعاء. مثال آخر: لو أن امرأة تعرضت للتحرش ثم دعت الله عز وجل بأن يحدث لابنته ما فعله هو، ألم تكن قد دعت بحصول معصية الله عز وجل لإنسانة بريئة ليس لها ذنب؟ أين علامات تعظيم مناهي الله عز وجل هنا؟

(الكلام السابق الملون ليس دقيقا في هذه المسألة أعني مسألة الدعاء على الظالم أن يبتليه الله بمثل ما فعل تفصيل فيرجع من ابتلى بشيء إلى شيخ لسؤاله)

أيضًا من علامات أنك تغضب لمعصية الله عز وجل أن يكون وقع المعصية في قلبك واحد إن كانت من قريب لك أو غريب عنك لا تعرفه، فلا تلتمس العذر للقريب وتغضب على العدو، فهذه ليست غضبة لله عز وجل. والأهم من ذلك هو أن تغضب بنفسك وتنتبه لها إذا ارتكبت ما يُغضب الله عز وجل. فلا تجعل نفسك على حال الناس وتغفل حالك.

3- ألا يسترسل مع الرخصة إلى حد يكون فيه جافيًا غير مستقيم على المنهج الوسط

بمعنى أنك قد تُعطى أكثر من فتوى على مسألة واحدة، ولك أن تأخذ فيها بالأحوط على قدر استطاعتك دون مغالاة. ولكن من الخطأ أن يكون حالك باستمرار أنك تبحث وتفتش عن الفتوى التي تناسب هواك وتبحث عن من يُفتي لك بها، حتى تظل بداعٍ وبدون داعٍ تأخذ بالرخصة وتجعلها مذهبك المُقدم، ثم تتبع زلات العلماء في فتاوي معينه قد اجتمعت المذاهب الأربعة في فتوى تحريمها ولكن قد زل أحد المشايخ بشيء آخر فتأخذ أنت بالشواذ من الأقوال. عند هذا الاسترسال في تجميع زلات العلماء والشواذ من أقوالهم؛ تكون قد ضيعت دينك كله وينتفي عنك رابطة التكليف والتقييد في الدين بالكلية. مثال: قد ثبت خطأ قول سيدنا ابن عباس في مسألة زواج المتعة، فكيف لك أن تأخذ بهذا القول؟

4- ألا يحمل الأمر على علة تُضعف الانقياد والتسليم لأمر الله عز وجل بل يُسلم لأمر الله تعالى وحكمه

فإيجاد أسباب مادية ملموسة لأسباب التحريم خطأ كبير، لأن بانتفاء السبب ينتفي التحريم. فنقول مثلًا إن تحريم الخمر جاء لأنه يسبب مشاكل للصحة فأنا مُخير لي أن أشربه أو أتركه، تحريم أكل لحم الخنزير جاء لأن به أمراض تنتقل للإنسان بسبب تغذيته ومعيشته على القاذورات وبالتالي إن تغذى على أشياء نظيفة وعاش بأماكن نظيفة ينتفي سبب تحريمه، تماشي حكم فرض الحجاب مع عادات العرب قديمًا فبالتالي من الممكن تركه الآن بسبب تغير العادات، الصلاة فُرضت لأنها تمارين رياضية إذًا نتركها الآن لأن لدينا اليوم الكثير من التمارين فلا داعي لها!

إذن فالبحث عن علل التحريم أو الأوامر والفروض يُضعف الحكم ولا يقويه. كما أن ظهور الحكمة والعلة في الحكم ليست قضيتنا الآن فنحن نأخذ الحكم الذي ثبت في جميع المذاهب وأقره السلف منذ زمن ونلتزم به دون البحث عن العلة والانشغال بالحكمة.

ثم يكمل الشيخ كلامه فيقول:

"ومن المسائل الجديرة بالعناية في هذا الباب: أن على العلماء وطلبة العلم والباحثين والمثقفين ونحوهم، العناية بالاستدلال والاعتماد على النصوص الشرعية في العلم والعمل"

<u>التعليق:</u>

وهنا لابد أن نؤكد على أن النظر في الأدلة هي صنعة العلماء والمجتهدين؛ لأن لديهم الأدوات التي تمكنهم من فهم النصوص من معرفتهم باللغة وبفهم الحديث ومعرفة أساليب القياس ومعرفة أن هناك الكثير من الأدلة بخلاف النص الواضح. وهذا كله لا يتوافر ولا يملكه عوام الناس وطلبة العلم. بل وإن ذكر الدليل في الفتوى لعامة الناس غير مطلوب؛ لأن المُستفتي قد لا يفهم الدليل ولا يعرف معنى القياس، هو لا يعرف غير النص الواضح الصريح كالصحف المنشرة، وإن قيل له الدليل ولم يفهمه قد يشعر بأن الخطأ في ضعف قولك وحجتك فيترك الفتوى ويأخذ بخلافها بما يتناسب مع أهوائه. وكم من سنن هُدمت بحجة أن ليس لها دليل وهم يستشهدون بقول الإمام الثوري: **"إن استطعت ألا تحك رأسك إلا بأثر فافعل".**

مثال على هذا: شيوع فتوى "أن إفرازات فرج المرأة لا تنقض الوضوء" طالما أنها لم يأتِ بها نص واضح بالتحريم كما جاء في البول والمني وغيره. مع العلم بأنه بالقياس فتلك الإفرازات تنقض الوضوء وبالتالي الصلاة قبل التطهر منها والوضوء صلاة باطلة.

ثم يقول الشيخ:

"ومن نظر في النصوص الثابتة، ثم تقدم بين يديها أو أغار عليها بالتأويل المتعسف أو التحريف المتكلف، وراح يفسرها مجاراة لأهواء الناس أو مداهنة لأهل العلمنة والتغريب، لم يكن في الحقيقة مفتقرًا لها معظمًا لحدودها".

التعليق:

وهذا واقع بالفعل في زماننا، ففي مسألة الميراث مثلًا: هناك أحوال ترث فيها المرأة نصف الرجل وأحوال أخرى ترث فيها مثل الرجل؛ بل إن هناك أحوال ترث فيها المرأة أكثر من الرجل، ثم نجد بعضٌ ممن يُسمون أنفسهم فقهاء يفتون بالمساواة بين الرجل والمرأة في الميراث مجاراة لأهواء الناس.

فحديث كحديث ضرب الأولاد على الصلاة، نجد أن بعض الناس يسقطونه بالجملة مجاراة للغرب وخطبًا لودهم بمنع ضرب الأطفال مطلقًا، أو إزالة أحاديث قوامة الرجل على المرأة إرضاءً للغرب وخطبًا لودهم. ونجد على النقيض المغالين في الدين يستشهدون بآيات ضرب المرأة بالضرب المطلق المبرح التي لا قيود لماهيته. والطرفان كبعضهما على خطأ، والسبب في ذلك بأن الطرفان ينظرون إلى النصوص بطريقة متشابهة؛ فالعلماني مُفّرط غير مفتقر لله ويُريد أن يثبت شيء في نفسه، والمتشدد مغالٍ في تعظيم الأوامر والمناهي ويُريد أن يثبت شيء في نفسه أيضًا.

إذًا فمرة ثانية النظر في الأدلة هي صنعة العلماء وليست للعامة ولا المثقفين ولا لطلبة العلم. وإن النصوص لا تأتي واضحة جلية في صيغة افعل كذا ولا تفعل كذا. ولكن هناك الكثير من الأدلة التي لا يعرفها إلا العالم المجتهد: مثل أفعال الأمة وأقوال الصحابه والعام والخاص والإجماع وثبوت الإجماع وغيره.

العلامة السابعة: سرعة التوبة بعد المعصية

. والعبد الصالح إذا زلت به قدمه وعصى الله عز وجل اتصف بصفتين متلازمتين:

الصفة الأولى: سرعة الندم والرجوع إلى الله.

الصفة الثانية عدم الاستهانة بالمعاصي.

وينقل عن الحافظ ابن حجر قوله "وهذا شأن المسلم أنه دائم الخوف والمراقبة يستصغر عمله الصالح ويخشى من صغير عمله السيء".

فالمؤمن لا يقع في المعصية إلا زللًا وعن ضعف لا تبجحًا واستهتارًا. ثم يسارع بالتوبة والاستغفار.

ثم يختم الشيخ كتابه بعلاقة التوبة بالافتقار إلى الله.

فمن الطبيعي لو أن الشخص مستشعر لمعنى الافتقار إلى الله عز وجل؛ سيسارع بالتوبة إلى الله وعدم الاستهانة بذنبه.